

الْقَصِيدَةُ الْحَاثِيَّةُ

فِي الزُّهْرِ وَالشَّرْحِ وَالشَّرْهِي

لِلشَّيْخِ الْعَدْلَانِ

حَافِظُ بَيْتِ أَعْمَدِ الْحَاثِي

تَأَلِيفُ

عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَدْر

الطبعة الأولى

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٥



مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلِّل فلا هاديَّ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد؛

فبين أيدينا منظومة نافعة وقصيدة مفيدة للعلامة العلم الشيخ الإمام حافظ ابن أحمد بن علي الحكمي رحمته الله، الشهير بحسن التصانيف، وجمال المؤلفات، وجودة المنظومات العلمية المتنوعة في أبواب الشريعة، لما حوته من علم غزير، وتقرير نافع، وحسن استدلال، وجمال ترتيب، ووضوح عبارة، وطيب نصح من هذا الإمام الهمام رحمته الله.

ومما نظمهُ رحمته الله هذه القصيدة الهائية، وهي في باب شريفٍ ومهمٍ من العلم؛ وهو الزهد في الدنيا والتحذير من الافتتان بها، والتكالب عليها، وأن تكون أكبر هم المرء، ومبلغ علمه، وغاية مقصوده، فإن من كان كذلك أضرت الدنيا مضرة عظيمة، وكانت سببَ هلكته وحرمانه من الخير، والناظم رحمته الله قد

أحسن وأجاد في هذه المنظومة؛ فإنها مع اختصارها حوت خيراً كثيراً، ونفعاً عظيماً.

وقد كتب العلماء **رَحِمَهُمُ اللَّهُ** في هذا الباب كتاباتٍ نافعة، ومؤلفاتٍ مفيدة؛ كالإمام أحمد وابن المبارك ووكيع وهناد بن السري وغيرهم. وطالب العلم يحتاج أن يقرأ ما كتبه أهل العلم في هذا الباب من أجل أن تتهذب نفسه ويستقيم قلبه، وتصلح حاله، وألا يفتتن بالدنيا.

وأحبُّ أن أشير إلى أن الشيخ زيداً بن محمد بن هادي المدخلي **رَحِمَهُ اللَّهُ** له تعليقٌ على هذه المنظومة بعنوان: « التعليقات البهية على القصيدة الهائية »، وفيه كفاية في توضيح مضامينها، وبيان ما حوته من معاني عظيمة، وإفاداتٍ مباركة، وهي مطبوعة متداولة، أسأل الله أن يعظم بها النفع وبشرحي هذا إنَّه ولي التوفيق لا شريك له^(١).



(١) وأصل هذا الشرح دروسٌ أَلَقَتْهَا في مسجد عائشة عبد الله المحري بمنطقة المسایل من دولة الكويت عُقِدَتْ في ثلاثة مجالس بدءاً من يوم الخميس ٢٨ / ٢ / ١٤٣٧ هـ، وكانت الاستضافة بتنسيق من مكتب الشؤون الفنية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، أُجْرِيت عليه تعديلات وإضافات وتنقيحات، وشكر الله لإمام هذا المسجد خالد الكندري جُهِدَهِ وحرَّضَهُ على خروج هذه الدروس مطبوعة، والله وحده الموفق.



* قال رَحِمَهُ اللهُ:

وَمَا لِي وَلِلدُّنْيَا وَلَيْسَتْ بِبُعْيَتِي وَلَا مُنْتَهَى قَصْدِي وَلَسْتُ أَنَا لَهَا
وَلَسْتُ بِمِيَالٍ إِلَيْهَا وَلَا إِلَى رِئَاسَتِهَا، نَتْنًا وَقُبْحًا لِحَالِهَا!!

الشرح

قوله (وما لي وللدُّنيا وليست ببُعْيَتِي): صدر الناظم رَحِمَهُ اللهُ هذه القصيدة بهذا البيت مبيناً أن الدنيا لم تأسر قلبه، ولم تستحوذ على نفسه؛ كما هو حال كثير من الناس، ولا يقول هذه الكلمة إلا من فطن لحال الدنيا وما فيها من فتنة جارفة وزخرف زائل، ومتاع فان.

وهي كلمة ثبتت عن النبي ﷺ كما جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن عمر دخل على رسول الله ﷺ وهو على حصير، قد أثر في جنبه، فقال: يا نبي الله! لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟ فقال: «ما لي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها»^(١)

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» رقم: (٢٧٤٤)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٤٣٩).

وهذه حال العبد في الدنيا، وحال إقامته وتمتُّعِهِ بملذَّاتِها، فهو كمثل رجل استظل بظل شجرة ثم مضى وانصرف وتركها، فلماذا تستولي على قلب المرء؟! ولماذا تستحوذ على اهتمامه! ولماذا تكون مبلغ علمه وغاية مقصوده وهذا مَثَلُها؟!

قوله **(وَلَيْسَتْ بِبُغْيَتِي)**: أي ليست بمَطْلَبِي ومقصودي وهمَّتي، وإنما الهمة والرغبة منصرفة للآخرة؛ فهي البُغْيَةُ والرغبة، بل هي غاية المُنَى.

قوله **(وَلَا مُنْتَهَى قَصْدِي)**: أي أنها لم تستولِ على مقصده وغايته، وإنما الغاية نيل رضوان الله ﷻ والفوز بالدرجات العلى في الآخرة.

قوله **(وَلَسْتُ بِمَيَالٍ إِلَيْهَا)**: ليس عندي ميلٌ وانشراحٌ صدرٍ ورغبةٌ في الدنيا، وزينتها وزخرفها ورئاستها، كل ذلك ليس لي فيه همة ولا رغبة.

فأرشدَ رَحِمَهُ اللهُ في هذين البيتين إلى ما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم -الناصح لنفسه- مع هذه الدنيا، وألا يغتر بمتاعها الزائل، وزُخْرُفِها الفاني، وبهجتها المنقضية، فإن كلَّ فرحةٍ وعافيةٍ، وكلَّ غنىٍّ ومتاعٍ في الدنيا سينتهي ولا بد.

ولا يفهمُ مما تقدَّم أن الإنسان يتركُ تحصيلَ ما يقيمُ دُنياه ورزقه ومسكنه وملبسه، ويبقى عالَةً على الآخرين، بل لا يضُرُّ المسلم أن يعملَ ويكدحَ ويحصلَ المالَ، ولو أصبحَ المالُ عنده كثيراً، لكن الذي يضره أن تكون الدنيا هَمَّهُ وبُغْيَتِهِ ومقصده ومبلغ علمه.

ولذا جاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا»^(١).

ولا يَصْرُهُ أيضاً أن يكون من اهتمامه بالدنيا إبقاء أولاده أغنياء، وتحصيل مصالحهم وأرزاقهم، كما جاء في الحديث: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء، خيرٌ من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»^(٢).

فأبواب الزهد في الدنيا إن لم تُفهم على وجهها فقد تصل بالإنسان إلى الدخول في نوع من الانحراف والمخالفة لشرع الله ﷻ.

فالخاص أن الإنسان ينبغي أن يعرف حقيقة الدنيا، وخسستها، وسرعة زوالها، وأنها ملعونة ملعونٌ ما فيها، إلا الخير وذكر الله والعمل الصالح والتقرب إلى الله ﷻ، كما جاء في الحديث: «إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا أو متعلمًا»^(٣).

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: الدعوات، رقم: (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني في «الكلم الطيب» رقم (٢٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب: الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، رقم: (١٢٩٥)، ومسلم في «صحيحه» كتاب: الوصية، رقم: (١٦٢٨).

(٣) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: الزهد، رقم: (٢٣٢٢)، وابن ماجه في «السنن»، أبواب: الزهر، باب: مثل الدنيا، رقم: (٤١١٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٧١).

(فالدنيا في الحقيقة لا تُدَمُّ، وإنما يتوجَّهُ الذمُّ إلى فعل العبدِ فيها، وهي قنطرة ومعبر إلى الجنة أو النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة - فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها - صار لها اسم الذم عند الإطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبه وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة إنما كان بما زرعه فيها.

وكفى بها مدحاً وفضلاً ما لأولياء الله فيها من قُرَّة العيون، وسرور القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم؛ بذكره ومعرفته ومحبه وعبادته والتوكل عليه والإنابة اليه والأنس به والفرح بقربه والتذلل له ولذة مناجاته والإقبال عليه، والاشتغال به عن سواه، وفيها كلامه ووحية وهده وروحه الذي ألقاه من أمره فاجتبي به من شاء من عباده) (١).



* قال رَحِمَهُ اللهُ:

هِيَ الدَّارُ دَارُ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْعَنَاءِ سَرِيعٌ تَقْضِيهَا، قَرِيبٌ زَوَالُهَا
مَيَاسِيرُهَا عُسْرٌ، وَحُزْنٌ سُرُورُهَا وَأَرْبَاحُهَا خُسْرٌ، وَنَقْصٌ كَمَالُهَا
إِذَا أَضْحَكَتْ أَبْكَتْ، وَإِنْ رَامَ وَصَلَهَا غَبِيٌّ فَيَا سُرْعَ انْقِطَاعِ وَصَالِهَا!

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن القيم (ص ٣٣١).

الشرح

يبيِّنُ رَحِمَهُ اللهُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ حَالَ الدُّنْيَا، وَحَالَ النَّاسِ فِيهَا.

قوله (دَارُ الهمِّ، والغمِّ، والعناء): هذه أُمُورٌ حَاصِلَةٌ لِلنَّاسِ وَلَا بُدَّ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ أُوتُوا فِيهَا الْمَالَ وَالرَّئِيسَاتِ وَالْمَنَاصِبَ فَلَنْ يَسْلَمُوا مِنْهَا.

فإنَّهَا إِنْ أَضْحَكَتْ قَلِيلًا أَبْكَتْ كَثِيرًا، وَإِنْ سَرَّتْ قَلِيلًا أَحْزَنْتْ كَثِيرًا، وَمَا مُلِئَ بَيْتٌ فَرَحًا إِلَّا مُلِئَ تَرَحًّا.

ودواء الهموم والغموم ذِكْرُ اللهِ ﷻ، وعبادته، واللجوءُ إليه، والإقبالُ على طاعته، وتلاوة القرآن، والإيمان بقضاء الله وقدره، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ أي: يَسْعُدُ، وَيَهْنَأُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وقال تعالى ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ وَحْزَنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمْتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حَكْمِكَ، عَدِلَ فِي قَضَاؤِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمِيتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حَزَنِي، وَذَهَابَ هَمِّي؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ ﷻ هَمَّهُ،

وأبدله مكان حزنه فرحاً. قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟ قال: أَجَلْ ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن»^(١).

فهذه الأمور المذكورة في الحديث من صحة المعتقد، والإيمان بالقدر، والمعرفة بالله وأسمائه وصفاته، والتوسل إلى الله ﷻ بها، وكذا العناية بالقرآن والاستشفاء به، وغير ذلك مما ورد في الحديث هي التي فيها مداواة الهموم والغُمووم.

قوله **(سَرِيعٌ تَقْضِيهَا قَرِيبٌ زَوَالُهَا)**: أي: مع هذه الأشياء المتقدمة من الهمِّ والغمِّ والآلام؛ **(سَرِيعٌ تَقْضِيهَا)** فسريراً ما تنقضي.

ولهذا مهما أُوتِيَ المرءُ في هذه الدنيا من الجاهِ والمالِ والرئاسة وما إلى ذلك؛ يَفْجَأُ النَّاسَ خَبْرُ موْتِهِ أو افْتقَارِهِ، فهو بين حالين: إما أن تذهب عنه دُنْيَاهُ، أو يذهب عنها، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، وكذلك انقضاء الدنيا كلها قريب، كما قال الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ فعلى العبد أن يتنبَّه لحال الدنيا وسُرعة انقضائها.

(١) أخرجه الإمام أحمد في "المسند" رقم: (٤٣١٨)، وصحَّحه الألباني في "السلسلة الصحيحة" رقم: (١٩٩).

قوله (مياسِرُها عُسْرٌ وحُزْنٌ سُورُها): فالذي في الدنيا من خيرٍ ويُسرٍ وعافية، يقابله أيضاً ما فيها من عُسْرٍ ونَكْدٍ وآلامٍ.

والمصاعِبُ والمتاعِبُ تُلازِمُ مُطالبَ الدنيا قَبْلَ تحصيلها، وبعد تحصيلها، ووقت تحصيلها، فالمرء يعاني معاناةً شديدةً ويكونُ في همٍّ وغمٍّ حتى يُحْصَلَ مَطْلُوبُهُ في الدنيا، وبعد تحصيله يَظَلُّ في خوفٍ وهمٍّ خشيةً أن يضيعَ من يده أيضاً، فتجد الإنسان مثلاً لو طَمَعَ في شراء سيارة أو مَنْزِلٍ، فإنه يتعبُ وينصبُ في التفكير وجمع المال، فإذا حَصَلَها وصارت في يده انتقلَ لَهُمَّ آخر وهو خشيةُ ضررها وفقدِها، فلا يَسْلَمُ أيُّ شيءٍ في الدنيا من هذه الأمور.

قوله (وَأَرْبَاحُها خُسْرٌ): وذلك لأنَّ الأشياءَ التي يربحها الإنسان ويحْصِلُها في الدنيا غالباً ما تكون على حساب دينه والذي خُلِقَ من أجله، إلّا من وَفَّقَهُ اللهُ ﷻ وهداهُ للجمع بين خير الدنيا والآخرة.

قوله (وَنَقْصٌ كَمَالُها): فكمال الدنيا للمرء هو نقصٌ في الحقيقة؛ لأنها تأخذ شيئاً من نصيبه من الطاعة والعبادة وذكر الله ﷻ ولا بُد.

قوله (وإن رَامَ وَصَلَهَا غَيٌّ): أي: إذا طَمَعَ المرءُ في وصل الدنيا ونيل نعيمها (فَيَاسِرْ عَ انْقِطَاعِ وَصَالِها) أي فسريراً ما ينقضي هذا الوصال وينقطع.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (سرور الدنيا أحلامٌ نوم، أو كَظَلٌّ زائل، إن أَضْحَكَتْ قليلاً أبكت كثيراً، وإن سَرَّتْ يوماً ساءت دهرًا، وإن مَتَّعَتْ قليلاً مَنَعَتْ طويلاً،

وما ملأت داراً خيراً إلا ملأتها عبرةً.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: لكل فرحة ترحه، وما ملئ بيت فرحاً إلا ملئ ترحاً.
وقال ابن سيرين رحمته الله: ما كان ضحك قط إلا كان من بعده بكاء ^(١).



* قال رحمته الله:

فَأَسْأَلُ رَبِّي أَنْ يَحُولَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ اغْتِيَالِهَا

الشرح

لما ذكر حال الدنيا وبيّن أمرها دعا بهذه الدعوة العظيمة **(فَأَسْأَلُ رَبِّي أَنْ يَحُولَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ اغْتِيَالِهَا)** أي: بيني وبين أن تغتالني الدنيا، فكم قد تزينت للخلق حتى فُتِنُوا بها، واغترُّوا بها، فاغتالتهم وأهلكتهم.
ولا خلاص من اغتيال الدنيا وفتنها للمرء إلا باللجوء إلى الله تعالى والتعوذ به من فتنها، كما جاء في «صحيح الإمام البخاري» رحمته الله: (باب في التعوذ من فتنة الدنيا) وأورد حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا هؤلاء الكلمات كما تُعَلَّمُ الكتابة: اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر» ^(١).

(١) «زاد المعاد في خير هدي العباد» (٤/ ١٧٤-١٧٥).

ومن الدعوات النافعة ما ثبت من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلسٍ حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: « اللهم أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصُرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا». (٢)

وأيضاً من الدعوات النافعة في هذا الباب ما ثبت من دُعائه ﷺ: « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر ». (٣).

فالْحاصل أن الدعاء مفتاح الخير، ومفتاح الفرج، ومفتاح النجاة، فلهذا ينبغي على العبد أن يُقبل على الله ﷻ بالدعاء.

(١) « صحيح البخاري » كتاب: الدعوات، رقم: (٦٣٩٠).

(٢) أخرجه الترمذي في « الجامع » كتاب الدعوات، رقم: (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني في « الكلم الطيب » رقم: (٢٢٦).

(٣) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب: الذكر والدعاء، رقم: (٢٧٢٠).

* قال رحمه الله:

فَيَا طَالِبَ الدُّنْيَا الدِّينِيَّةِ جَاهِداً أَلَا اظْلُبْ سِوَاهَا؛ إِنَّهَا لَا وَفَا لَهَا
فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ حَرِيصٍ وَمُشْفِقٍ عَلَيْهَا فَلَمْ يَظْفَرْ بِهَا أَنْ يَنَالَهَا

الشرح

قوله (فيا طالب الدنيا الدينية جاهداً): يخاطبُ الناظم رحمه الله من استغرق جهده ووقته وهمته وذكاءه في الدنيا، وأكبَّ عليها بكُلِّيَّته: (أَلَا اظْلُبْ سِوَاهَا) ومراده بسواها: أي الآخرة، فلا تكن من أهل الدنيا وكن من أهل الآخرة.

وإنما يكون المرء من أهل الآخرة؛ بطلب العلم، والتفقه في الدين، والإقبال على طاعة رب العالمين، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (منهومان لا يشبعان: صاحب العلم، وصاحب الدنيا، ولا يستويان؛ أما صاحب العلم، فيزداد رضا للرحمن، وأما صاحب الدنيا، فيتمادي في الطغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطِغِي﴾ ٦) ﴿أَن رَّءَاهُ أَسْتَغَى﴾ وقال للآخر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ١). (١).

قوله (إنها لا وفا لها): أي أنها تُعَرِّر بأهلها وأصحابها بمتاعها، ثم تزول عنهم ولا تبقى لهم كما قال تعالى: ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

(١) أخرجه الدارمي في "سننه" باب: فضل العلم والعالم، رقم: (٣٤٤).

قوله **(فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ حَرِيصٍ وَمُشْفِقٍ عَلَيْهَا)**: أي كثيرٌ هم الذين انشغلوا بالدنيا وزخرفها عن العبادات والفرائض وأعمال الخير والبر والتقرب إلى الله فأصبحت همهم.

قوله **(فَلَمْ يَظْفَرْ بِهَا أَنْ يَنَالَهَا)**: وإن نال منها شيئاً فسيذهب هذا الشيء عنه، أو يذهب عنه بالموت لا محالة كما تقدّم.



* قال رحمه الله:

لَقَدْ جَاءَ فِي آيِ «الْحَدِيدِ» وَ«يُونُسَ» وَفِي «الْكَهْفِ» إِيْضًا بِضَرْبِ مِثَالِهَا
وَفِي «آلِ عِمْرَانَ» وَسُورَةِ «فَاطِرٍ» وَفِي «غَافِرٍ» قَدْ جَاءَ تَبْيَانُ حَالِهَا
وَفِي سُورَةِ «الْأَحْقَافِ» أَعْظَمُ وَاعِظٍ وَكَمْ مِنْ حَدِيثٍ مُوجِبٍ لِاعْتِرَالِهَا

الشرح

هذه الأبيات الثلاثة هي من أعظم ما احتوت عليه هذه المنظومة؛ لأنَّ بيان حال الدنيا ومتاعها الزائل والتزهيد فيها جاء في نصوصِ الوحيين، فالناظم أشار فيها إلى كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ.

قوله **(لقد جاء في آي الحديد)**: يشير رحمه الله لقول الله ﷻ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ فِيهَا مِزَاجٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ

أَعْجَبَ الْكَفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَلُهُ مُصَفَّرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطْلَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ ﴿١٠﴾.

وهو مثلٌ عظيم، صدره الله ﷻ بقوله ﴿أَعْلَمُوا﴾ وهي كلمة تنبيهٍ يؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة المهمة ليتنبه لها المرء ويحسن فهمها.
﴿لَعِبٌ﴾: فشان الدنيا أنها مشغلة لأبدان الناس وأوقاتهم، فتضيع أوقاتهم وتهلك أبدانهم باللعب.

﴿وَلَهُوٌ﴾: أي أنها ملهية للقلوب، وصارفة لها عما خلقت لأجله.
﴿وَزِينَةٌ﴾: في الملبس والمركب والمسكن، وفيها أشياء تأسر الإنسان وربما استولت على قلبه؛ فتصبح همته ومقصده في تحصيلها.
﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾: فكلما ظفر الإنسان بشيء من متاع الدنيا أخذ يفخر به ويتعالى على الآخرين، وأنه أوسع وأكثر وأفضل منهم ونحو ذلك.
﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾: فتكون همته أن يكون أكثر مالاً وولداً من غيره، كما قال الله تعالى: ﴿أَلْهَكُمُ الشَّكَاوَةُ﴾ ١١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿١٢﴾.

﴿كَمْثَلٌ غَيْثٌ أَعْجَبَ الْكَفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَلُهُ مُصَفَّرًا﴾ يعني: كمثل مطرٍ نزل على أرض جدية أصابها القحط، فأنبتت من كل زوج بهيج، وأعجب الكفار - وهم الزُّرَّاع - بنباتهِ، واستولى على قلوبهم جمال الأرض وزينتها، ثم ينقضي هذا الجمال، ويهلك النبات، وتذهب زينته.

فانظر -رحمك الله- إلى جمال الأرض وزينتها في الربيع إذا نزل المطر، وكيف يطيبُ النظر إليها، وتمتلىء العينُ بهجةً وسروراً كلما تكررَ النظر إليها.

ثم انظر إلى الأرض ذاتها مرةً أخرى بعد انقضاء الربيع، قد لا تطيق النظر إليها من الجذب الذي أصابها.

فهذا مثَلٌ عظيمٌ ضربه رب العالمين ﷻ لحال الدنيا وزخرفها ومتاعها في أمرٍ يشاهدهُ الناس بين حين وآخر في حياتهم.

قوله (ويونس): ففي سورة يونس قد ضربَ الله ﷻ مثلاً آخر في بيان حال الدنيا، وهو قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ فلما نزل هذا المطر وارتوت به الأرض أنبتت نباتاً صالحاً يأكله ويتنفع به الإنسان والأنعام، فيظنُّ الإنسان أنها باقيةٌ ومستمرةٌ له، فهذا حال تزين الدنيا وتجميلها للمرء، لكن ماذا بعد ذلك؟ يقول تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنَّهُمْ آمَرْنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. أي: كأنها ما كانت، فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء، وإنما ينتفع بمثل هذه الأمثال العظيمة أهلُ التفكير والتأمل فتوقظ قلوبهم وتحييها، ويسلمون من الاغترار بزخرفها والافتتان بزينتها.

قوله (وفي الكهف): أي قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، (كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أُعْجِبَ بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام، وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سيئ أعماله، هنالك يعُضُّ الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات؛ بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الحازم الموفق يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدري أنك قد متّ، ولا بدّ أن تموت، فأَيّ الحالتين تختارين؟

الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العمل لدارٍ أكلها دائم وظلّها، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ الأعين؟ فبهذا يُعرَفُ توفيقُ العبد من خذلانه، وربُّهُ من خسارِهِ^(١).

قوله (إيضاحٌ بضربٍ مثالها): أي جاء في الآيات الثلاث المتقدمة توضيح حال الدنيا بضربٍ مثالٍ يكشف عن حقيقتها، وفائدة الأمثال المضروبة تقريب

(١) «تيسير الكريم الرحمن» لابن سعدي (ص ٥٥٠).

المعاني، وجعل الأمور المعنوية بمثابة الأمور المشاهدة المحسوسة، ولهذا قد أكثر الله ﷻ منها في القرآن؛ لعظيم نفعها، والله ﷻ يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

قوله (وفي آل عمران وسورة فاطر وفي غافر قد جاء تبيان حالها): فجاء في هذه السور الثلاث بيان حال الدنيا، وأنها متاع الغرور، فأما آية آل عمران فهي قول الله ﷻ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

وأما آية فاطر فهي قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

وأما آية غافر فهي في النصيحة التي قدمها مؤمن آل فرعون ﴿يَقُولُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

فبين الله ﷻ في الآيات المتقدمة أن الدنيا متاع زائل فان، وأنها متاع الغرور، والمتاع مهما كبر واتسع وعظم فهو زائل في نهايته وفان، فلماذا يغتر الإنسان بها؟!

قوله (وفي سورة الأحقاف أعظم واعظ): لعل الناظم رحمه الله يشير إلى ما جاء في أواخر سورة الأحقاف وهي قوله ﷻ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾، فهذا من أعظم وأكبر المواعظ؛ أن يعرف الإنسان أن العمر الذي عاشه في هذا الدنيا، والسنين التي قضاها ستكون إذا وقف يوم القيامة بين يدي الله ﷻ كأنها ساعة من نهار.

فكيفَ يَغْتَرُّ الإنسانُ ويستولي على قلبه هذا الوقت القليل الذي سرعان ما ينقضي ويذهب؟!

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا خَلَقَهَا اللَّهُ ﷻ وَسَخَّرَهَا لِأَجْلِ الْإِنْسَانِ؛ فَسَخَّرَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَهِيَ لَهُ خَيْرَاتُ هَذِهِ الدُّنْيَا لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، فَكَيْفَ يَنْشَغِلُ الْإِنْسَانُ بِالشَّيْءِ الَّتِي خُلِقَ لِأَجْلِهِ عَمَّا خُلِقَ هُوَ مِنْ أَجْلِهِ! كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﷻ فَاللَّهُ ﷻ خَلَقَ الْإِنْسَانَ لِلْعِبَادَةِ، وَأَوْجَدَهُ لِلطَّاعَةِ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ كَسْبِ الرِّزْقِ، وَتَحْصِيلِ الْمَسْكَنِ وَالْمَرْكَبِ، وَلَكِنْ جَاءَ التَّحْذِيرُ مِنْ افْتِتَانِ الْإِنْسَانِ بِالدُّنْيَا حَتَّى تَأْسُرَ قَلْبَهُ، وَتَصْبِحَ غَايَةً هَمَّهُ، فَتَشْغَلُهُ عَمَّا خُلِقَ مِنْ أَجْلِهِ.

قوله (وَكَمْ مِنْ حَدِيثٍ مُوجِبٍ لَاعْتِزَالِهَا): مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا؛ إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ، وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا» ^(١)، وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهُ خُضْرَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ» ^(٢)

وَالنَّصُوصُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ تَحْذِيرًا مِنَ الْإِفْتِتَانِ بِالدُّنْيَا وَالانْشَغَالِ بِهَا عَنِ الْآخِرَةِ.

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «الْجَامِعِ» أَبْوَابَ الزُّهْدِ، بَابُ هَوَانِ الدُّنْيَا، رَقْمُ: (٢٣٢٢)، وَابْنُ مَاجَةَ فِي «السُّنَنِ» أَبْوَابَ الزُّهْدِ، بَابُ: مِثْلُ الدُّنْيَا، رَقْمُ: (٤١١٢)، وَحَسَنَةُ الْأَلْبَانِي فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ» رَقْمُ: (٧١).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، كِتَابُ: الرِّقَاقِ، رَقْمُ: (٢٧٤٢).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

(لا تتم الرغبة بالآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

* **نظر في الدنيا وسرعة زوالها، وفنائها واضمحلالها ونقصها وخسستها، وألم المزاومة عليها، والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنقص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف؛ فطالبها لا ينفك من همٍّ قبل حُصُولِها، وهمٍّ حال الظَّفَرِ بها، وغَمٍّ وحزن بعد فواتها، فهذا أحد النظرين.**

* **النظر الثاني النظر في الآخرة، وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هنا؛ فهي كمال قال الله سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.**

فإذا تم له هذان النظران أثر ما يقتضي العقل إثارة، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه..^(١).

وذكر رَحِمَهُ اللهُ نحو هذا المعنى في موضع آخر، وزاد عليه أمراً ثالثاً، فقال:

(والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء:

(١) كتاب « الفوائد » (ص ١٣٦).

* أحدها: علم العبد أنها ظل زائل، وخيال زائر، وأنها كما قال الله - تعالى -

فيها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكَثْرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَنَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرِيَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وقال تعالى ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾.

وسماها سَمَّاها متاع الغرور، ونهى عن الاغترار بها، وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين بها، وحذرننا من مثل مصارعهم، وذم من رَضِيَ بها، واطمأن إليها.

وقال النبي ﷺ: «ما لي وللدنيا؟ إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها»^(١).

وفي المسند عنه ﷺ حديث معناه: إن الله جعل طعام ابن آدم، وما يخرج منه مثلاً للدنيا^(٢)؛ فإنه وإن قَرَّحَهُ وَمَلَّحَهُ فليُنْظَرِ إلى ماذا يصير.

(١) تقدم تخريجه عند البيت رقم: (١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» برقم: (٢١٢٧٧)، ولفظه: «عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مطعم بن آدم جُعِلَ مثلاً للدنيا، وإن قَرَّحَهُ وَمَلَّحَهُ، فانظروا إلى ما يصير»، وأخرج أيضاً حديثاً نحوه برقم: (١٥٧٤٧)، ولفظه: «عن الضحَّاك بن سفيان الكلابي رضي الله عنه».

فما اغتر بها ولا سكن إليها إلا ذو همة دنيّة، وعقلٍ حَقِيرٍ، وَقَدْرٍ خَسِيسٍ.

*** الثاني:** علمُهُ أَن وراءها داراً أعظم منها قدراً، وأجلُّ خطراً، وهي دار البقاء، وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة هذه في اليمِّ، فلينظر بِمَ ترجع؟»^(١)، فالزاهد فيها بمنزلة رَجُلٍ في يده دِرْهَمٌ زَغَلٍ، قيل له: اطرحه، ولكِ عِوَضُهُ مائة ألف دينار مثلاً، فآلقاه من يده، رجاء ذلك العِوَضِ، فالزاهد فيها لكمال رَغْبَتِهِ فيما هو أعظم منها زَهْدٍ فيها.

*** الثالث:** معرفتُهُ أَنَّ زُهْدَهُ فيها لا يمنعُهُ شيئاً كتب له منها، وأن حِرْصَهُ عليها لا يجلب له ما لم يُقْضَ له منها، فمتى تيقَّن ذلك، وصار له به علمٌ يقينٌ؛ هان عليه الزهد فيها؛ فإنه متى تيقَّن ذلك، وثلج له صدره، وعلم أن مضمونهُ منها سيأتيه؛ بقي حرصه وتعبُهُ وكُدُّهُ ضائعاً، والعاقل لا يرضى لنفسه بذلك.

أن رسول الله ﷺ قال له: يا ضَحَّاك ما طعامُك؟ قال: يا رسول الله، اللحم واللبن؟ قال: ثم يصير إلى ماذا؟ قال: إلى ما قد عَلِمْتُ، قال: فإن الله تبارك وتعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا، وصَحَّحَهُ الألباني لغيره في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٣٨٢).

وقوله (وإن قَرَّحَهُ وَمَلَّحَهُ): قال ابن الأثير: (أي: أي تَوَبَّلَهُ، من القرح وهو التابل الذي يطرح في القدر، كالكمُّون والكزبرة ونحو ذلك، والمعنى: أن المَطْعَمَ وإن تكلف الإنسان التثوق في صنْعته وتطْييبه فإنه عائد إلى حالٍ يكره ويستقذر، فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها، ونظم أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار). «النهاية في غريب الحديث» (٥٨/٤).

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الجنة ونعيمها وأهلها، رقم: (٢٨٥٨).

فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها، وتثبت قدمه في مقامه،

والله الموفق لمن يشاء»^(١).



* قال رَحِمَهُ اللهُ:

لَقَدْ نَظَرُوا قَوْمٌ بِعَيْنِ بَصِيرَةٍ إِلَيْهَا فَلَمْ تَغْرُزْهُمْ بِاخْتِيَالِهَا
أُولَئِكَ أَهْلُ اللَّهِ حَقًّا وَحَزْبُهُ لَهُمْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ إِرْثًا، وَيَا لَهَا!

الشرح

هذه حال أهل الحق والهدى، ومن وفقهم الله ﷻ، وشرح صدورهم، وهداهم إلى صراطه المستقيم، فإنهم نظروا إلى الدنيا (بعين بصيرة): فالنظر إن كان عن بصيرة وتأمل في حقيقة الدنيا وهوانها على الله ﷻ، وسرعة انقضائها وزوالها، وكونها متاع الغرور؛ هو النظر النافع للعبد، وهو نظر أهل الهداية والحق.

قوله (فلم تغررهم): هذا نتيجة النظر النافع المتقدم أنها لم تغررهم (باختيالها)

أي: بزيتها وزخرفها ومتاعها.

قوله (أولئك): أي الذين وفقهم الله ﷻ لمعرفة حقيقة الدنيا، ولم تغررهم،

ولم يغتروا بزخرفها: (أهل الله حقاً وحزبه): والمراد بهم خاصته، وأولياؤه؛ الذين

اختصهم برحمته وعظيم فضله، وبيّن لنا ربنا ﷻ أن أولياءه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

(١) «طريق المهجرتين» (٢/ ٥٥٠-٥٥٤).

هُم يَحْزَنُونَ ﴿١﴾، وثبت في الحديث عن نبينا الكريم ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى أهلين من الناس؛ أهل القرآن هم أهل الله وخاصته» (١).

قوله (لهم جنة الفردوس): أعدها الله ﷻ نزلًا لهم، ومثوبة، وكرامة.

قوله (إراثًا ويا لها): أي ويا لها من إراث ونعمة وعطية؛ كما قال الله ﷻ ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فهؤلاء هم الوارثون لهذه النعمة الجليلة والمكرمة العظيمة؛ جنة الفردوس.

وقد ذكر الحافظ النووي رَحِمَهُ اللهُ في مقدمة كتابه النافع «رياض الصالحين» أبياتًا، وهي تنسب للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ، تحوي المعنى الذي أشار إليه الناظم:

إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا فُطِنَا	طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا	أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطْنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا	صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُفْنَا



* قال رَحِمَهُ اللهُ:

وَمَالَ إِلَيْهَا آخِرُونَ لِحَبْلِهِمْ فَلَمَّا اظْمَأْنَأُوا أَرْشَقَتْهُمْ نِبَالُهَا
أُولَئِكَ قَوْمٌ آثَرُوهَا فَأَعْقَبُوا بِهَا الْخِزْيَ فِي الْأُخْرَى، وَذَاقُوا وَبَالَهَا

(١) أخرجه ابن ماجه في «السنن» أبواب: الإيمان، باب: فضل من تعلم القرآن وعلمه، رقم:

(٢١٥)، وصححه الألباني، انظر «السلسلة الضعيفة» رقم: (١٥٨٢).

الشرح

هذا قسمٌ، آخر من الناس: وهم الذين غرتهم الدنيا، وفُتِنُوا بزخرفها، وألْهَتهم بمتاعِها، وسَلَبَتْ أَعْيَنَهُمْ زَيْتُهَا، فمالوا إليها، وأصبحت هي بغيتهم، وأكبر همَّهم، ومنتهى قصدهم.

قوله: **(ومال إليها آخرون لجهلهم)**: فسببُ هذا الافتتان والاغترار هو الجهل بالله ﷻ، وبحقِّه الواجب عليهم، وكذلك لجهلهم بحقيقة الدنيا ومآلها.

قوله: **(فلما اطمأنوا)**: لهذا الزخرف الزائل والمتاع الفاني، وظنوا أنهم باقون في هذا المتاع والزخرف؛ **(أرْشَقْتُهُمْ نِبَالُهَا)**: الرِّشْقُ: هو الرمي، والمقصود أنها رَمَتْهُمْ بنبالها، فمنهم من هلك على عصيانه وغروره وإعراضه عن الله ﷻ، ومنهم من ازداد طغياناً وكفراً بما أوتي من متاع الدنيا وزخرفها، ومنهم من عاش حياةً هو فيها محرومٌ من لذة الطاعة، وهناءة التقرب إلى الله ﷻ، فأهلكتهم أشدَّ الهلكة.

قوله: **(أولئك قومٌ آثروها)**: أي آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، ولم يكن لهم مراد ولا رغبة إلا بها، كما قال الله ﷻ: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ فماذا كانت النتيجة؟ **(فأعقبوا بها الخزي في الأخرى)** أي كانت العاقبة هي الخزي في الدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

قوله: **(وذاقوا وبآلها)**: الوَبَال هو سوء العاقبة، والمآل الوخيم، والمقصود أنهم ذاقوا الخزي وسوء العاقبة يوم وقوفهم بين يدي الله ﷻ.

قال ابن القيم **رحمته الله**: (ومتى رأيت القلب قد ترحل عنه حبُّ الله والاستعداد للقاءه وحل فيه حب المخلوق والرضا بالحياة الدنيا والطمأنينة بها فاعلم أنه قد خسف به) ^(١).



* قال **رحمته الله**:

فَقُلْ لِلَّذِينَ اسْتَعَذَّبُوهُا: رُؤَيْدُكُمْ! سَيَنْقَلِبُ السُّمُّ النَّقِيعَ زُلَالُهَا
لِيَلْهُوا وَيَعْتَزُّوا بِهَا مَا بَدَأَ لَهُمْ مَتَى تَبْلُغَ الْحُلُقُومُ تُضْرَمَ جِبَالُهَا

الشرح

(فَقُلْ) يا من وَفَّقَكَ اللهُ **رحمته الله** لحسن البصيرة، والمعرفة بحال الدنيا **(للذين استعذبوها)**: وافتتنوا بزخرفها **(رُؤَيْدُكُمْ)**: أي تمهلوا، وانظروا في عواقب هذا الغرور والافتتان قبل أن تندموا في موطن لا ينفعكم فيه الندم، وانظروا إلى ماذا سيؤول هذا الذي استعذبتموه، **(سَيَنْقَلِبُ السُّمُّ النَّقِيعَ زُلَالُهَا)**: السُّمُّ النَّقِيعُ، وسمُّ ناقع، وسمُّ منقوع؛ أي بالغٌ وشديدُ الإضرار، فهذا الذي ترونهُ عَذْباً زُلَالاً من متع الدنيا سَيَنْقَلِبُ إلى هذه الحال.

قوله **(لِيَلْهُوا وَيَعْتَزُّوا بِهَا مَا بَدَأَ لَهُمْ)**: وهذا كلام عظيم، فإنه يُقال للمفتون بالدنيا: لو لَهَيْتَ بهذه الدنيا ومتاعها وزخرفها؛ فإلى متى سيستمِرُّ هذا اللهو؟

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ١٢٠٠).

أَتَنْتَظِرُ أَنْ يَفْجَأَكَ وَيَدْهَمَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى هَذِهِ الْغَفْلَةِ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

وهؤلاء اللاهون الغافلون متى عاينوا الموت تَمَنَّوْا أَنْ يُوجَلَ؛ ليعملوا صالحاً غير الذي كانوا يعملون، ولهذا يُذَكَّرُ عن الحسن البصري رحمته الله أنه أراد أن يَعِظَ أَحَدَ الْمُفَرِّطِينَ الْمَعْرُضِينَ فَأَخَذَهُ إِلَى الْقُبُورِ، فَقَالَ لَهُ: (يا فلان لو كنت مكان هؤلاء ماذا تتمنى؟ قال: والله أتمنى أن يُعِيدَنِي اللهُ لِلدُّنْيَا لِأَعْمَلَ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنْتُ أَعْمَلُ، فقال: يا هذا أنت فيما تتمناه، فاعمل)؟؟

قوله **(مَتَى تَبْلُغَ الْحُلُقُومَ تُضْرَمَ حَبَالُهَا)**: أي متى تبلغ الروح الحلقوم ستنتقطع حبال الدنيا، وهي العلائق والصلوات التي يرتبط بها الإنسان في الدنيا، من التجارات، والأموال، أو القصور، أو غيرها، كلها ستنتهي وتنقطع، إذا بلغت الروح الحلقوم، لأن النبي ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ»^(١)، أي ما لم تبلغ الروح الحلقوم، كما قال الله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَامُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾ فإذا حضر الموت وصار عياناً، وبلغت الروح الحلقوم، فلا تنفع التوبة حينئذ صاحبها.

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، رقم: (٣٥٣٧)، وابن ماجه في «السنن» أبواب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم: (٤٢٥٣) وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم: (٣١٤٣).

ومقصود الناظم **رَحِمَهُ اللَّهُ** بهذا الكلام الحثُّ على المبادرة بالتوبة والإنابة، والرجوع إلى الله **تَعَالَى**.



* قال **رَحِمَهُ اللَّهُ**:

وَيَوْمَ تُوفَى كُلُّ نَفْسٍ بِكَسْبِهَا تَوَدُّ فِدَاءً لَوْ بَنِيهَا وَمَالَهَا
وَتَأْخُذُ إِمَّا بِالْيَمِينِ كِتَابَهَا إِذَا أَحْسَنْتَ، أَوْ ضِدَّ ذَا بِشِمَالِهَا
وَيَبْدُو لَدَيْهَا مَا أَسْرَتْ وَأَعْلَنْتَ وَمَا قَدَّمْتَ مِنْ قَوْلِهَا وَفَعَالِهَا

الشرح

قوله **(ويوم توفى كل نفس بكسبها)**: أي بما كسبت وحصلت في هذه الحياة الدنيا، قال الله **تَعَالَى** ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقال **عَلَيْهِ**: ﴿ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

فقوله **عَلَيْهِ**: ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ أي ما قدمته في هذه الحياة من أعمال فإنها سوف **﴿تُوفَّى﴾** أي تُجازى جزاءً وافياً يوم القيامة عند الوقوف بين يدي الله **عَلَيْهِ**.

وينبغي للعبد أن يدرك ذلك، وأن أيامه وشهوره وأعوامه؛ وكل ما يقع فيها من أقوال وأعمال محصاة عليه، وسيوفى ذلك كله يوم القيامة.

قوله **(تَوَدُّ فِدَاءً لَوْ بَنِيهَا وَمَالُهَا)**: فالْمُعْرِضُ والمَفْرُطُ في ذلك اليوم يندم ندماً شديداً على تفريطه وتضييعه حينما يرى العذاب، ويود أن يفدي نفسه من العذاب وَسَخَطِ الْجَبَّارِ ﷻ ولو بَبَنِيهِ وماله؛ كما قال الله ﷻ: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ بِبَنِيهِ ۖ وَصَحْبِهِ ۖ وَأَخِيهِ ۖ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّسُ ۖ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۖ﴾ ويقول تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ﴾ أي من عذاب الله وعقوبته.

قوله **(وَتَأْخُذُ إِمَّا بِالْيَمِينِ كِتَابَهَا، إِذَا أَحْسَنْتَ)**: وهم أهل القسم الأول المتقدم؛ الذين وفقهم الله ﷻ للعلم النافع والعمل الصالح، ولم يغتروا بالدنيا وزخرفها، فهؤلاء يأخذون كتبهم بأيمانهم؛ وذلك جزاء الإحسان الذي كان منهم في هذه الحياة الدنيا.

قوله **(أَوْ ضِدَّ ذَا بِشْمَالِهَا)** وهؤلاء هم القسم الثاني، وهم الذين لم يُحْسِنُوا بل أساءوا وغرتهم الحياة الدنيا، فإنهم يأخذون كتبهم بِشْمَالِهِمْ.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَقُولُ هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِي ۖ﴾ إِلَى ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۖ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ۖ فَقُولُ يَلَيَّتَنِي لَوْ أَنِّي كُنْتُ عَالِيَةً ۖ وَلَمْ أَدرِ مَا حِسَابِي ۖ يَلَيَّتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ۖ هَآكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ۖ خُذُوهُ فَعَلُوهُ ۖ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۖ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۖ﴾

قوله (ويبدو لديها ما أسرت وأعلنت، وما قدمت من قولها وفعالها): في

ذلك اليوم تبدو للإنسان الأعمال التي قدمها، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ وسيقف الإنسان حينها على عمله كُلِّهِ ويراه مسطوراً في كتاب أعماله، كما قال تعالى: ﴿لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾، ويجده حاضراً عنده، ثم يجازى عليه؛ كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾، وقال أيضاً: ﴿لِيُجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

فهذا كله مما يدعو العبد إلى التيقظ والتفطن، والأخذ بالحزم والعزم، وأن يزم نفسه بزمam الحق والهدى، وأن يحذر أشد الحذر من التفریط والتهاون والتسويق والتأجيل.



* قال رَحِمَهُ اللهُ:

بِأَيْدِي الْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ مُسَطَّرُ	فَلَمْ يُغْنِ عَنْهَا عُذْرُهَا وَجِدَالُهَا
هُنَالِكَ تَدْرِي رَبِّحَهَا وَخَسَارَهَا	وَإِذْ ذَاكَ تَلْقَى مَا إِلَيْهِ مَالُهَا
فَإِنَّ تَكُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالتَّقَى	فَإِنَّ لَهَا الْحُسْنَى بِحُسْنِ فِعَالِهَا
تَفُوزُ بِجَنَاتِ النَّعِيمِ وَخُورِهَا	وَتُخْبِرُ فِي رَوْضَاتِهَا وَظِلَالِهَا
وَتُرْزَقُ مِمَّا تَشْتَهِي مِنْ نَعِيمِهَا	وَتَشْرَبُ مِنْ تَسْنِيمِهَا وَزُلَالِهَا

الشرح

فكل ما قدَّمه العبدُ من قولٍ أو فعلٍ قد سَطَّرَ بأيدي الملائكة الكاتبين في كتابِ أعماله؛ كما قال **رَبِّهِ**: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، فإنَّ الله **رَبُّهُ** قد وَكَّلَ إلى ملائكة كتابة الأعمال وتسطيرها ونسخها، فيكتبون كلَّ ما يقوله العبدُ ويفعله، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ فالمراد بقوله ﴿نَسْتَنْسِخُ﴾ أي: بأمرنا للملائكة أن تكتب أعمالكم، فُتَحْصَى عليكم مسطرة في كتابٍ، تجدونه يوم القيامة حاضراً أمامكم.

قوله **(فَلَمْ يُغْنِ عَنْهَا عُذْرُهَا وَجَدَّالُهَا)**: أي إذا قامت هذه النفس المُفَرِّطَة لتعتذر أو تجادل عن حالها ومآلها في ذلك اليوم: فلن تنفعها المَعْدرة، ولن ينفعها الجدل؛ لأنه يوم الجزاء والحساب.

قوله **(هُنَالِكَ تَدْرِي رَبِّحَهَا وَخَسَارَهَا)**: فإذا أخذ الإنسان كتابه، ثمَّ وجد أعماله مُحْصاةً عليه، ولم يبقَ إلا حُلُولُ الجزاء؛ هنالك يظهر الرابع؛ الذي ينقلب إلى أهله مسروراً، أو الشقي الخاسر والعياذ بالله.

قوله **(وَإِذْ ذَاكَ تَلْقَى مَا إِلَيْهِ مَأْلُهَا)**: أي ما تؤول إليه؛ لأن ذاك اليوم هو يوم الجزاء، فالمحسن يؤول أمره إلى الفوز بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْزِي الَّذِينَ

أَحْسِنُوا بِالْحُسْنَى ﴿١﴾ وقال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ ﴿٢﴾، والمسيء يؤول أمره إلى العقوبة والخسران كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَتْ عِقَابَ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوَاءَى﴾ ﴿٣﴾.

وبعد ذلك فصل الناظم **رحمته** في مآل المحسنين، ومآل المسيئين، فقال في مآل المحسنين الرابعين:

(فَإِنْ تَكُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَالتَّقَى): أي إذا كان العبد من الذين كتب الله **رحمته** لهم السعادة، فسلك بهم طريق السعادة، وكانوا من الملازمين لتقوى الله **رحمته**.

(فَإِنْ لَهَا الْحُسْنَى بِحُسْنٍ فَعَالِهَا): فأهل السعادة والتقوى لهم عند الله الحسنى؛ وذلك لحُسْنِ فعالهم التي قدموها في الحياة الدنيا، ثم فصل **رحمته** في الثواب والنعيم فقال:

(تَفُوزُ بِجَنَّاتِ النِّعَمِ): التي أعدها الله **رحمته** نزلاً لعباده المتقين، وأوليائه المقربين، وذلك هو الفوز العظيم.

قوله (وَحُورِهَا): أي وتفوز بها أعدده الله **رحمته** فيها لهم من الحور العين.

قوله (وَمُحَبَّرٍ): أي تُنعم (في رَوْضَاتِهَا وَظِلَالِهَا)، أي في روضات الجنة كما قال **رحمته**: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ ﴿٤﴾: أي: يتنعمون ويهناون ويتلذذون بنعيم الجنة.

قوله (وَتُرْزَقُ) أي في الجنة (مِمَّا تَشْتَهِي مِنْ نَعِيمِهَا): فيهنئون بنعيم الجنة؛ ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥﴾.

قوله (وتشرب من تسنيمها وزلالها): يشير لقول الله ﷻ: ﴿وَمِنْ أَشْجِهِمْ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾، وهي أعلى أشربة الجنة، ولذا كانت خالصة للمقربين كما قال ﷻ ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾.



* قال رحمه الله:

وإِنَّ لَهُمْ يَوْمَ الْمَزِيدِ لَمَوْعِدًا زِيَادَةً زُفًى، غَيْرُهُمْ لَا يَنَالُهَا
وُجُوهٌ إِلَى وَجْهِ الْإِلَهِ نَوَاطِرُ لَقَدْ طَالَ مَا بِالذَّمِّعِ كَانَ ابْتِلَالُهَا
تَجَلَّى لَهَا الرَّبُّ الرَّحِيمُ مُسَلِّمًا فَيَزْدَادُ مِنْ ذَاكَ التَّجَلِّيِ جَمَالُهَا

الشرح

هذا أعظم نعيم لأهل الجنة وأكملُهُ؛ النظر إلى وجه الله الكريم ﷻ، وهي الزيادة التي جاءت في قوله ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

قوله (وإِنَّ لَهُمْ يَوْمَ الْمَزِيدِ لَمَوْعِدًا): المراد بيوم المزيد: يوم الجمعة، يُكْرِمُ الله ﷻ فيه أهل الجنة ويُشَرِّفُهُم بالنظر إليه، كما صحَّ عن نبينا ﷺ في الحديث أَنَّ جبريل عليه السلام يقول: «ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد»^(١).

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» رقم: (٢٠٨٤)، وقال الألباني: (حسن صحيح).
«صحيح الترغيب والترهيب» حديث رقم (٦٩٤).

وثبت عن النبي ﷺ أيضاً أنه قال: « فليسوا هم في الجنة بأشوق إلى شيء منهم إلى يوم الجمعة، ليزدادوا منه كرامة، ويزدادوا نظراً إلى وجهه ﷺ » (١).

قوله (زيادة زُلفي): أي لهم زيادة كرامةٍ ومَنْزِلَةٍ فوق النعيم والإكرام الذي يمنُّ الله ﷻ عليهم به في الجنة؛ بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ فيكرمهم زيادةً على ذلك برويته ﷺ، وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وثبت في السنة تفسيرها بالنظر إلى وجهه ﷺ (٢).

قوله (غَيْرُهُمْ لَا يَنَالُهَا): لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾، فأهل الإيمان هم الموعودون برويته، ولا ينال هذا الشرف إلا هم.

كما بَشَّرَ النبي ﷺ أهل الإيمان فقال لهم: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغْلَبُوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروب الشمس، فافعلوا» (٣).

قوله (وجوه): أي وجوه أهل الإيمان، (إِلَىٰ وَجْهِهِ الْإِلَهِ نَواظر) أي بأبصارها

(١) أخرجه البزار في « البحر الزخار » (٦٨/١٤) رقم: (٧٥٢٧)، وجوّد إسناده الحافظ المنذري، وحسنه الألباني رَحِمَهُمُ اللَّهُ. « صحيح الترغيب والترهيب » رقم: (٣٧٦١).

(٢) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الإيمان، رقم: (١٨١-١٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في « صحيحه » كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ رقم (٧٤٣٤)، وأخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب المساجد، رقم: (٦٣٣).

حقيقةً، كما قال الله ﷻ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ فقولُه ناصرة: من النَّصْرَةِ، وهي الحُسْنُ والبهاء، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ أي بأبصارها.

قال الحسن البصري رحمه الله: «وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْصَرَ وهي تنظر إلى الخالق»^(١).

قوله (لَقَدْ طَالَ مَا بِالْدمْعِ كَانَ ابْتِلَالُهَا): أي كم ابتلَّت أعينُهُم في الدنيا بالدمْع، ولعل الدمع هنا متعلِّق بما سبق؛ وهو شوق النظر إلى الله ﷻ، فقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أنَّ البكاء أنواع؛ ومن جملة بكاء المحبة والشوق^(٢).

فكم اشتاقت قلوبهم، وتاقت نفوسهم، وطمعوا غاية الطمع والرجاء وأكثروا من دعائهم في الدنيا أن يكرمهم ربُّهم بهذا النظر، مؤتسين بنبيهم ﷺ في دعاءه: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ، والشوق إلى لقائك؛ في غير ضراءٍ مُضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ»^(٣).

قوله (تَجَلَّى لَهَا الرَّبُّ الرَّحِيمُ مُسَلِّمًا): التجلي هو كمال الظهور، فالله ﷻ يتجلَّى لتلك الوجوه فتزداد كرامةً ورفعةً بالنظر إلى ربها الكريم، وذكر الناظم

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥٠٧/٢٣).

(٢) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١٧٧/١)، وجملة الأنواع التي ذكرها رحمه الله ستة: (بكاء الرحمة والرفقة، والثاني: بكاء الخوف والخشية، والثالث: بكاء المحبة والشوق، والرابع: بكاء الفرح والسرور، والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله، والسادس: بكاء الحزن).

(٣) أخرجه النسائي في «المجتبى» كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٥)،

وصححه الألباني في «الكلم الطيب» (١٠٦)

اسم (الرَّحِيم) تنبيهاً إلى أن هذه الكرامة العظمى إنما نالوها برحمة الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فيتجلى الله للمؤمنين يضحك»^(١)، أي يوم القيامة.

قوله (مُسْلِمًا): كما جاء في القرآن الكريم: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ فالناظم رَحِمَهُ ضَمَّنَ قوله: (الرَّبُّ الرَّحِيمُ مُسْلِمًا) معنى هذه الآية.

قوله (فَيَزِدَادُ مِنْ ذَاكَ التَّجَلِّيَ جَمَاهُا): أي يزدادون حسناً وجمالاً بعد هذا التجلي والظهور، وكلّما تكرر هذا النظر للرَّبِّ العظيم ازداد الحسن والجمال، كما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لسوقاً، يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً»^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ: (يجوز أن يكون هذا الحديث مُحْتَصِراً من بقية الأحاديث بأن سبب الازدياد: رؤية الله تعالى، مع ما اقترن بها)^(٣).

(١) أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» كتاب الإيمان، رقم: (١٩١).

(٢) أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم: (٢٨٣٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٤٠٨/٦).

وهذا المعنى أيضاً تدل عليه الآية الكريمة المتقدمة: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

وجاء في "صحيح مسلم" من حديث صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل، ثم تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (١).



* قال رحمه الله:

بِمَقْعَدِ صِدْقٍ حَبَا الْجَارُ رَبُّهُمْ وَدَارِ خُلُودٍ لَمْ يَخَافُوا زَوَالَهَا
فَوَاكِهَهَا مِمَّا تَلَذُّ عُيُونُهُمْ وَتَطْرُدُ الْأَنْهَارُ بَيْنَ خِلَالِهَا
عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ، ثُمَّ فُرُشُهُمْ كَمَا قَالَ فِيهَا رَبُّنَا وَاصِفاً لَهَا
بَطَائِنُهَا إِسْتَبْرَقَ، كَيْفَ ظَنُّكُمْ ظَوَاهِرُهَا؟! لَا مُنْتَهَى لِحِمَالِهَا

الشرح

هذه جملة من أوصاف الجنة في ضوء ما دلت عليه النصوص وجاءت به الأدلة:

(١) "صحيح مسلم" كتاب الإيمان، رقم: (١٨١-١٨٢).

قوله **(بِمَقْعَدٍ صِدْقٍ)**: المراد بالمقعد الصديق الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنْتَقِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهَرٍ ﴿٥١﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٢﴾﴾، وَسُمِّيَتْ الْجَنَّةُ مَقْعَدَ صِدْقٍ لِأَنَّهَا الْمَقْعَدُ الَّذِي يُنَالُ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ حَسَنٍ، وَكُلُّ نَعِيمٍ وَهْنَاءٍ وَقُرَّةِ عَيْنٍ، وَمِنْ جَمَلَتِهِ مَجَاوِرَةٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﷻ - كما سيأتي -، فالأمرُ التامُّ يوصف بهذا الوصف؛ مثل أن يُقال: المحبة الصادقة، والمودة الصادقة، وهكذا.

قوله **(حَبَّذَا الْجَارُ رَبُّهُمْ)**: وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي دَعَاءِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ قال العلماء: إنها اختارت في دُعائها الجارَ قبل الدار^(١).

قوله **(وَدَارٍ خُلُودٍ)**: فَمِنْ إِكْرَامِ اللَّهِ ﷻ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ جَعَلَهُمْ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدَ الْآبَادِ، وَنَعِيمِ الْجَنَّةِ لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَنْقُطِعُ وَلَا يَفْنَى.

قوله **(لَمْ يَخَافُوا زَوَالَهَا)**: بخلاف النعيم الذي يظفر به الإنسان في الدنيا فإنه عن قريب سينقطع ويزول كما تقدّم.

قوله **(فَوَاكِهُهَا مِمَّا تَلَذُّ عِيُونُهُمْ)**: ففي الجنة من الفواكه والطعام ما لذّ وطاب؛ وَمِنْ جَمَالِ فَوَاكِهِ الْجَنَّةِ وَحُسْنِهَا أَنَّ الْأَعْيُنَ تَلَذُّ فِيهَا قَبْلَ الْبُطُونِ، كما قال الله ﷻ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قوله **(وَتَطَرَّدُ الْأَنْهَارُ بَيْنَ خِلَالِهَا)**: أي تجري الأنهار من خلال هذه الجنة؛ كما

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١٤/٦٦).

قال تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، في غير ما آية.

قوله **(على سُررٍ مَوْضُونَةٍ)**: أي يتكئون ويجلسون على سُررٍ مَوْضُونَةٍ؛ ومعنى **(مَوْضُونَةٍ)** أي: مَنْسُوجَةٍ بالذهب والجوهر، وهذا غاية في الحسن والجمال والتمام؛ كما قال تعالى: ﴿عَلَى سُررٍ مَوْضُونَةٍ ۝١٥ مُتَكِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ﴾.

قوله **(ثُمَّ فُرُشُهُمْ)**: وكذلك الفرش التي يجلسون عليها: **(بَطَائِنُهَا إِسْتَبْرَقٌ)** والإسْتَبْرَقُ: هو ما غلظ من الديباج؛ كما في قوله **﴿تَجَلَّى﴾**: ﴿مُتَكِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝١٤﴾.

قوله **(كَيْفَ ظَنُّكُمْ ظَوَاهِرُهَا ؟!)**: إذا كان كانت البطائن من إستبرق التي هي في غاية الحسن والجمال، فكيف ظنكم بظواهرها؟

وهذا المعنى الذي انتظمه هذا البيت وردَ عن جماعةٍ من الصحابة **رضي الله عنهم**، منهم ابن مسعودٍ وأبو هريرة، حيث قالوا عند هذه الآية: (قد أُخْبِرْتُمُ بِالْبَطَائِنِ، فكيف لو أُخْبِرْتُمْ بِالظَوَاهِرِ؟) ^(١).

قوله **(لَا مُنْتَهَى لِحِمَالِهَا)**: أي: جمال الظواهر لا منتهى له، وقد قيل لسعيد بن جبير: هذه البطائن من إستبرق، فما الظواهر؟ فقال: (هذا مما قال الله **﴿لَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾﴾** ^(٢).

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٢/٢٤٣) وانظر: «معالم التنزيل» للبغوي (٤/٢٩٣).

(٢) المصدران السابقان.

وَتَبَّتْ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ: مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »^(١).



* قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَوَيْلٌ وَحَسْرَةٌ وَنَارٌ جَحِيمٌ مَا أَشَدَّ نَكَالَهَا!
لَهُمْ تَحْتَهُمْ مِنْهَا مِهَادٌ، وَفَوْقَهُمْ غَوَاشٍ، وَمِنْ يَحْمُومٍ سَاءَ ظِلَالُهَا
طَعَامُهُمُ الْغَسْلِيُّ فِيهَا، وَإِنْ سُقُوا حَمِيمًا بِهِ الْأَمْعَاءُ كَانَ انْحِلَالُهَا
أَمَانِيَّتُهُمْ فِيهَا الْهَلَاكُ، وَمَا لَهُمْ خُرُوجٌ وَلَا مَوْتُ، كَمَا لَا فَنَاءَ لَهَا

الشرح

هذا معطوف على ما سبق، فبعد أن ذكر القسم الأول في قوله (فَإِنْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ) ثم ذكر حالهم وما أعدَّ الله ﷻ لهم من النعيم والسعادة؛ أردف ذلك بذكر القسم الآخر فقال: (وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى) وهم أهل الشقاوة والخسارة، (فَوَيْلٌ وَحَسْرَةٌ) والويل: هو الهلاك، وقيل: الخزي، وقيل: العذاب، وقيل: وادٍ في جهنم.

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم: (٢٨٢٤).

وقد جاءت هذه اللفظة (وَيْلٌ) في الوعيد للمكذبين والمعرضين في مواطن عديدة في القرآن؛ منها: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

قوله (وَحَسْرَةٌ): أي ندامةٌ وأسَفٌ؛ في وقتٍ لا تنفع فيه الندامة.

وجاءت تسمية يوم القيامة بيوم الحسرة في قوله ﷻ: ﴿وَأَنذَرُكُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ وذلك لأنهم يتحسرون وتتقطع أفئدتهم أسفاً وندامةً على ما قدموا في الدنيا، ولكن لا يفيدهم ذلك ولا ينفعهم.

قوله (وَنَارٌ جَحِيمٌ مَا أَشَدَّ نَكَالَهَا): النِّكَالُ هو العقوبة، أي: ما أشد العقوبة التي أعدت لأهل الشقاوة في النار، وأورد رحمه الله بعض الأمثلة لهذا النِّكَال فقال:

(لَهُمْ تَحْتَهُمْ مِنْهَا مِهَادٌ وَفَوْقَهُمْ غَوَاشٍ): يشير إلى قول الله ﷻ في سورة الأعراف: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، فقول الله ﷻ: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش، فالفراش الذي يفرشونه من جهنم، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ﴾ أي: لحاف، فلحافهم وغطاؤهم من جهنم.

قوله (وَمِنْ يَحْمُومٍ سَاءَ ظِلَالُهَا): يشير إلى ما دلَّ عليه قول الله ﷻ في سورة الواقعة: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۖ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ۖ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾، فالظِّلُّ الذي يستظلُّون به مِنْ يَحْمُومٍ،

واليحُمومُ: هو دُخانٌ شديد السواد، ومن وصفه أيضاً أنه: ﴿لَا بَارِدٌ﴾ أي: المنزل، ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ أي: المنظر.

قوله (طَعَامُهُمُ الْغَسْلِينَ): كما قال الله ﷻ: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنًا حَمِيمٌ ۖ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ﴾ والغسلين: هو صديد أهل النار الخارج من جروحهم وقروحهم.

قوله (وإن سقوا حميماً به الأمعاء كان أنجالها): أي تتقطع أمعاؤهم بشرهم لهذا الماء شديد الحرارة، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾.

ثم ختم ﷻ بذكر حال الكفار أهل النار فيها حيث ذكر أموراً أربعة:
الأول: (أَمَانِيَّتُهُمْ فِيهَا الْهَلَاكُ): فأكبرُ أُمْنِيَّةٍ لأهل النار وهم يُقاسون فيها أشدَّ العذاب أن يُهلكهم الله ﷻ؛ كما قال ﷻ: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْهِ تَارُكُكُمْ قَالُوا إِنَّا كُفَرْنَا﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾.

الثاني: (وَمَا لَهُمْ خُرُوجٌ): أي ليس لهم خروج منها، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

الثالث: (وَلَا مَوْتٌ): كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾^(٣٦) وهم يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ

نُعَمِّرُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
نَصِيرٍ ﴿٤٤﴾

الرابع (لا فَنَّا لَهَا): فنارُ الكفارِ لا تنفَى، بل هي باقيةٌ أبدَ الأبدِ، وهم
مخلدون في العذاب كما جاء في غير آية من القرآن: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.



* قال رَحِمَهُ اللهُ:

مَحَلِّينَ - قُلْ لِلنَّفْسِ لَيْسَ سِوَاهُمَا - لَتَكْسِبَ أَوْ فَلَتَكْسِبَ مَا بَدَا لَهَا
فَطُوبَى لِنَفْسٍ جَوَزَتْ وَتَخَفَّفَتْ فَتَنْجُو كَفَافًا لَا عَلَيْهَا وَلَا لَهَا

الشرح

لما ذكر الناظم رَحِمَهُ اللهُ ما أعدَّهُ اللهُ ﷻ لأهل السعادة من نعيم الجنة، وما أعدَّهُ
لأهل الشقاوة من عذاب النار، ختم بهذه الموعظة العظيمة فقال:

(مَحَلِّينَ قُلْ لِلنَّفْسِ لَيْسَ سِوَاهُمَا): أي فقل أيها الناصح لنفسه، إنَّ الدارَ
الآخرة لا بد من الانتقال والارتحال، وليس فيها إلا محلين: إما الجنة أو النار؛ كما
قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، وليس هناك محل ثالث.

قوله (لَتَكْسِبَ أَوْ فَلَتَكْسِبَ مَا بَدَا لَهَا): فإنَّ الله ﷻ يقول ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فما عَمَلَتْهُ من خيرٍ ستنال ثوابه وأجره، وما عَمَلَتْهُ من شرٍ

سيكون عليها عقابه ووزره، فإنه يوم المجازاة على الأعمال، كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

وإذا عرف العبد هذه الحقائق وما سبق من ترغيب وترهيب، ورجاء وخوف، ورغبة ورهبة؛ وجب عليه أن يتنبه وأن يتذكر مصيره ومآله يوم القيامة، فما ثمت إلا جنة أو نار، وإن الجنة لها أعمال، والنار لها أعمال، فمن عمل بأعمال أهل الجنة الصالحة فاز بثوابها وأجرها، وإن اكتسب السيئات والمعاصي نال عقوبتها ووزرها ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

ثم ختم الناظم بتأكيد المعنى الذي صدر به هذه القصيدة فقال:

(فَطُوبَى لِنَفْسٍ): أي حال ومآل طيب كريم في جنات الرضوان كما قال الله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَأْوٍ﴾.

قوله (جَوَزْتُ وَتَخَفَّفْتُ): أي تنبّهت لحال الدنيا وزخرفها الزائل الفاني فتد (جَوَزْتُ): والتجوز هو التخفيف، فتخففت من الدنيا ولم تنهمك في متعتها وزخرفها، بل كان أكبر همها الدار الآخرة، وطلب ما عند الله ﷻ.

قوله (فَتَنَجَّوْ كَفَافًا لَا عَلَيْهَا وَلَا هَا): يقال كفافاً، أي: سواء بسواء، فلا يوجد موجب للعقاب، ولا يوجد موجب للثواب فيما يتعلق بأمور الدنيا.

ومما يعين على فهم هذا المعنى الذي ذكره الناظم رحمه الله ما أخرجه الترمذي في

«جامعه» من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال النبي ﷺ: «يُحْسَبُ ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصر لهم منك الفضل»، قال: فتنحى الرجل فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «أما تقرأ كتاب الله ﷻ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﷻ»، فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أجد لي ولهم شيئاً خيراً من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرارٌ كلهم ^(١).

فليراجع المرء نفسه في كل ما يتعامل به مع الناس، فإن كان يمضي فيه بالتجاوز والتخفف فالأمر كفاف لا له ولا عليه، وإلا فليكن في غاية اليقظة لئلا يحمل نفسه من مظالم العباد ما يكون ندامة يوم القيامة، وأن يُذكر نفسه دائماً بالوقوف بين يدي الله وبالحساب، وأن الموازين تُنصب يوم القيامة، وتؤدي الحقوق لأصحابها، فيبعثه ذلك على أخذ الحيطة والحذر، ومع ذلك يسأل ربه ﷻ دائماً النجاة والمعونة والتوفيق والسداد، فإن الأمر بيده وحده لا شريك له.

(١) «جامع الترمذي» أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء، رقم: (٣١٦٥)،

وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم: (٢٢٩٠).

وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوَفِّقَنَا أَجْمَعِينَ لِمَا يَحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ سَدِيدِ الْقَوْلِ وَصَالِحِ الْعَمَلِ
إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِينَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

